هدية جدتي

قصة واقعية للفتيات بقلم

الكاتبة سهام خالد العامر







هدية جدتي

قصة واقعية
بقلم الكاتبة / سهام خالد العامر

أحداث القصة أبريل 2007 م



وقفت أمام المرآة أتحدث معها : ما رأيكِ في هندامي اليوم لزيارة جدتي ؟ تنهدت بقوة وأكملت : الله يعينني ... منذ شهور لم أزر جدتي بعد الموقف الذي حدث أمام عمتي.

خرجت إلى صالة المعيشة وأمي تنتظرني ، فقلت لها : ما رأيكِ في ثيابي؟ لا أريد مشاجرة أخرى مع جدتي على نفس الموضوع لولا مرضها وتعبها لا أفكر ....
قطعت أمي جملتي وقالت : أماني ... مهما حدث فيما بينك وبين جدتك لا تكون ردة فعلكِ في عدم زيارتها . صلة الرحم عبادة لا تتأرجح على هوى نفسك ... أفهمتي ؟
فقلت على مضض : ولكن جدتي لا تدرك ما تقوله أو تفعله.
فقالت أمي بعد أن وضعت عباءتها على رأسها : لا تدرك !؟ بل هي على صواب عندما ترى لبسكِ ومكياجكِ ! فكما تعلمين جدتكِ جامعية ومثقفة .
ركبت السيارة مع أمي وأحدث نفسي وأقول : الله يعينكِ يا أماني على زيارة جدتكِ.

دخلت بيتها وها هي تتمعن النظر في ثيابي ، صافحتها فضغطت على يدي بقوة ، خفت أن توبخني على ثيابي . فقالت : أين أنت يا أماني منذ شهور لم أرك ؟!
ابتسمت ابتسامة حياء فجلست بقربها ... أخذت تمعن النظر في وجهي ولتوها تريد أن تتحدث ، رن هاتفي فكبست زر الاستقبال هرباً من سماع ما ستقوله . وإذ بالطرف الآخر صديقتي قلت :

yes, I just came now, I think no, ok see you bye

أرى نظرات جدتي الغاضبة نحوي تعلن عن حرب ستدار بعد قليل وأنا طرف فيها لا محالة ، وأمي تشير بيدها نحوي بأن أنهي المكالمة .
فقالت جدتي بعد أن أقفلت الهاتف بغضب : ثيابكِ وسكت عنها والآن تأتين بشيء جديد تتحدثين باللغة الإنجليزية ، لما أنت مختلفة عن بنات أعمامكِ ؟
قلت لها : جدتي ... جيلكم غير جيلنا ، جيل اليوم جيل التطور والانفتاح ، جيل التكنولوجيا ... كما أنا لي شخصيتي وكياني ... ما لي ببنات أعمامي ؟
قالت باعتراض : قولي جيل التقليد الأعمى ، جرفكم شيء أسمه تطور وكأن تاريخنا ودينا خالي من الانفتاح والتطور ، نسيتم أصالتنا وقيمنا التي نادت بها حضارتنا العريقة، ما الذي ستتركون لأبنائكم حضارتهم أم حضارتنا ؟ أظن لا شيء ، لا هوية ولا قيم ، أدرتم رأسنا بإسم العولمة والتطور ، وأنتم بعيدين عن ذلك بل قولوا قلدنا لأنكم لم تضيفوا شيئاً على التطور .
غضبت على حديثها وأخذت حقيبتي وقلت لأمي : أنا أنتظركِ في السيارة .
صاحتا جدتي وأمي تناديا علي ، لم أعرهما اهتماماً أدرت ظهري وخرجت ، جلست في السيارة لحين ما خرجت أمي فقالت لي وهي غاضبة : ما الذي صنعتيه ؟؟!! ألا تتحلين بالهدوء ؟
قلت : وهي ألا تتحلى بالحكمة كلما أزورها وهي تعيد على أذني نفس الموال ؟ هذا ليس لبسنا ، هذا ليس بثوبنا ، لا تتحدثين الإنجليزي ، لا تضعين المكياج ، تريدني أن أرجع لزمنهم في لبسهم وعاداتهم وتقاليدهم .



رجعت البيت وأنا متعبة من الموقف الذي دار بيني وبين جدتي ، حاولت أن أنسى ما حدث ، ولكن همّ الموقف كبلني بالحزن . أخذت الهاتف وحدثت صديقتي فقالت : دعيها ... دائماً كبار السن يرون الحياة من زاوية أخرى ، والآن أخبريني ما موضوع بحثكِ الذي ستعرضينه بمحاضرة د . وفاء ؟

فقلت لها : الآن أنا متعبة وتفكيري مضطرب من أحداث اليوم !! سأخبركِ لاحقاً .

ومرت الأيام وذات يوم كنت جالسة مع صديقتي في الجامعة ، رن الهاتف وإذ أرى كلمات تظهر على الشاشة

" بيت جدتي " شهقت وقلت : جدتي ... ماذا تريد ؟!

ضغطت بسرعة على زر كاتم الرنين لأنني لا أريد أن أتحدث معها . أخذت تعاود الاتصال لأربع مرات على التوالي ولكن لم أرد على اتصالاتها ، وبعد قليل اتصلت أمي ، استقبلت اتصالها .

فقالت : جدتكِ تبحث عنكِ ، تريد أن تزورينها .

قلت دون تردد : أزورها !؟ وهل تريدين مشاجرة أخرى . لا لن أزورها ولا أريد نصحها وإرشادها . وليس ما تقوله صحيحاً لأنني مقتنعة بنفسي تماماً

Mom, thanks for calling

أقفلت السماعة ... ضحكت بقوة فقلت : أزورها ... لكي أسمع محاضرة عن القيم والأصالة .

مر أسبوع وكل يوم يتقبل هاتفي اتصال من جدتي ، ولكني كنت مصرة على رأيي . لا أرد عليها . واتفقت مع الخادمة كلما اتصلت على هاتف البيت تخبرها بجملة واحدة " إنني نائمة "



وذات يوم وأنا في محاضرة تلقيت رسالة من والدتي تخبرني بأن جدتي في المستشفى، ارتبكت وفوجئت ، اشعرتني الرسالة بالضيق والحزن ... استأذنت من أستاذ المادة ، وخرجت مسرعة ، حدثت والدتي في السيارة فقالت : إنها أصيبت بجلطة في الرأس صباح اليوم .

وصلت المستشفى وإذ بالعائلة مجتمعة في ممر الجناح ، إنها في العناية الفائقة ، لا أحد يستطيع أن يزورها أكثر من أثنين ... إنتظرت دوري لزيارتها . تمشي خطواتي وتلاحقها عيوني للبحث عن مكانها . ها هي جدتي في سبات عميق ، أرى وجهها النحيل الشاحب المتعب ، الأجهزة كبلت جسدها الضعيف ، ورنين الأجهزة تأز على أذني ، عيوني دامعة وقلبي حزين ، والنفس في ضيق كلما تذكرت زيارتي الأخيرة لها أبكي ... نعم أبكي فالمنظر الذي أراه أكبر من أن تتحجر المدامع .

وقفت عند رأسها ، همست في أذنها : جدتي ... جدتي ...

فتحت عيناها بتعب تنظر إلى السقف ، بعدها دخل الطبيب فأخبرني : إنها تسمعكِ ولكن لا تستطيع أن تتحدث .

أنزلت رأسي مرة ثانية عند أذنها فقلت : جدتي ... إنني أحبكِ برغم كل ما حدث أنني أحبكِ ... أنا آسفة على ...

فقطعت حديثي بأصوات غير مفهومة وتتمتم بحروف غير معلومة ، تنظر بعينها لعمي ومن ثم تنظر نحوي تارة أخرى ، ولكن لا تستطيع الحركة .

فقال عمي : أظنها تريد أن تذهبي لبيتها ، لتأخذي شيئاً جهزته لكِ منذ أسبوع ، هذا ما أخبرتني به منذ أيام .

ما إن سمعت حديث عمي حتى أوقفت عن إصدار الصوت .

قلت لها : حاضر جدتي سأذهب الآن إلى بيتكِ وسآخذ الغرض وماذا تريدين أيضاً ؟

ابتسمت ابتسامة رضا وانشراح ، قبلتها على جبينها واستأذنتها . ركبت السيارة ومازالت في عيني ابتساماتها . تلقيت اتصال من صديقتي تسأل عن الموضوع الذي سأعرضه في مقرر د . وفاء . فقلت لها أنني مشغولة الآن بمرض جدتي. وصلت بيتها أخبرت زوجة عمي عن الشيء الخاص بي من جدتي . فأحضرته وإذ هي علبة كبيرة تحملها ، قلت في نفسي : ما هذا الشيء الذي اهتمت به منذ أسبوع وكانت حريصة أن استلمه؟ فتحت العلبة وإذ بداخلها عباءة وغطاء رأس . فوجئت بالهدية ، ذرفت دموعي وأبكتني بحرقة ، أمسحها وأنا انظر إلى العباءة وغطاءها وأقول في نفسي : هذا ما كنتِ ستعطينني إياه ... ظننت اتصالكِ لأمر آخر.

فقالت زوجة عمي : لقد طلبت مني أن اشتري العباءة وحرصت أن تكون على قياسكِ ، كما قالت أريدها جميلة وغالية لترضي تطورها وتكنولوجيتها .

أزداد بكائي وحزني وخنقت عبرتي كلماتي : لم أدري إنها تريد إهدائي ... ظننتها تريد إقناعي بمبدئها .

فقالت : كل يوم تقول لي لم تمر أماني لتستلم هديتها .

وقفت فجأة وطلبت من زوجة عمي أن تكوي العباءة ، سأرتديها وسأعود للمستشفى لتراها ولتفرح بهديتها .

وعند جناح المستشفى أوقفني مشهد لم أراه في حياتي ، الكبير والصغير يبكون ، حزنا، أصرخ بصوت عالٍ : ما الذي حدث !؟ ما بكم ؟

أخذتني ابنة عمي في حضنها وقالت: جدتي ... جدتي تطلب منكِ الدعاء والرحمة . صرخت بيأس وجزع ، أحس المكان دار برأسي وأنا أردد : لقد ارتديت هديتكِ . كنت أتمنى أن أخبرها أنتِ على صواب ، أنت التطور والتقدم بل أنت القيم والأصالة ، أنني أشم رائحتكِ من عبق الماضي جدتي ... آآآه جدتي .

وفي يوم دراسي وقفت أمام د . وفاء والطلاب واخترت عنوان بحثي " هدية جدتي "
أحضرت الهدية وفتحتها وأخرجت العباءة فقلت ودموعي تدور داخل مقلتاي ، أتذكر وجه جدتي وحديثها : هذه أصالتنا وقيمنا بل هنا تطورنا وتقدمنا ، من لا قيم له لا حضارة له ، قد ترون داخل هذه العلبة عباءة ولكن في نظري أرى أصالة وتراث ، من حضارتنا بَنت الحضارات الأخرى ومن لغتنا كانت ولادة الأدب والشعر .
صفقت د . وفاء والطلاب . فقالت لي : مبروك أماني بحثكِ نال المركز الأول.

ألقيت بجسدي على الكرسي ، وضعت يدي على وجهي ، أجهشت بالبكاء وأقول: جدتي رحمكِ الله ... رحمكِ الله ... علمتيني شيئاً أفتخر به طول حياتي ، وعهداً عليّ سأعلمه لأبنائي وأحفادي ، بأننا نحن كباراً على هذه الأرض طالما تمسكنا بديننا وقيمنا وأصالتنا وهديتكِ لا أنظر إليها بأنها عباءة ، إنما هي قيم وأصالة ومبادئ وجدارة ...

جدتي إلى جنات الخلد فهديتكِ لا أظن تضاهيها هدايا بعدها . وسوف أكون دائماً **ثابته** على قيمي.

